بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قل هو الله أحد * الله الصمد *

لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفوا أحد ﴾

بقلم فضيلة الشيخ محمد الغزالى

رئيس قسم الدعوة

وحدانية الله نتيجة محتومة لكل نظر صائب صادق فى هذا العالم الكبير !

ولنضرب مثلا بالجسم الانسانى ، اذ هو أقرب شىء الينا ، ان الأجهزة العاملة فيه كثيرة ، والوظائف التى تؤديها منوعة ، ومع ذلك فان الوحدة التى تنتظمها ، وتقر التناسق بين جهودها تدل على أن المشرف واحد ، وأن الذى صنع المادة فى هذه الأجهزة ، ورسم الخطة لسيرها ، ووزع شتى الاعباء عليها واحد .

ان الجهاز العصبى يصدر أوامره الى فروة الرأس وأصابع القدم ، والجهاز الدورى يمد الاطراف القريبة والبعيدة بحاجتها من الدم النقى ويطرد عنها ما يؤذيها من الدم المشوب ، وسائر الاجهزة المعقدة فى ذلك الجسم الساحر تتبادل الأعباء والحقوق تبادلا ينطق بوحدة الخطة والهدف ووحدة الخالق الأعلى ! ! .

وما يقال فى الجسم البشرى يقال فى هذا الكون « الراقص » على حد تعبير بعض العلماء — فان نماء سنبلة فى حقل قضية تشارك فيها الكواكب الدوارة فى الفضاء ، كما تشارك فيها حبات التراب وقطرات الماء عندنا ! ! .

فلولا هذا البعد الموزون بين الارض والشمس ما أمكنت حياة ، ولا نما زرع أو ضرع ! !

مما يدل كذلك على أن خطة الوجود من الأوج الى السفح واحدة ، وأن بديع السموات والأرض واحد ..

فاذا أصغينا الى قول العلماء الثقات أن داخل الذرة نفس النظام المطرد فى المجموعة الشمسية ، وأن اللبنة التى بنيت منها المـــادة الكونية هى هى التى تنتشر فى رحاب العالم أدركنا أن الله واحد ، وهتفنا مع القرآن الكريم « الله نور السموات والأرض .. » .

وسورة الاخلاص تتضمن الحديث عن وحدانية الله ، على أساس أن وجوده جل شأنه حقيقة فوق الريب . والواقع أن انكار الوجود الاعلى ليس تفكير عقل وانما هو بلادة حس .

والذين يزعمون أن التقدم العلمى يحرج الايمان بالله نفر من صناع الأكاذيب بين الناس ، والحادهم لا يعود الى نصيب محترم من المعرفة قدر ما يعود الى نصيب مضاعف من الغفلة والسماجة ! !

والوحدانية التى تقررها سورة الاخلاص تنفى أولا أن يكون لله شركاء ينازعونه الألوهية ، ويستحقون معه العبادة والحب والولاء والدعاء

وقد كان بعض العرب يؤمن بالله ، وأنه الخالق الرازق ، ولـــكنه يتخذ من بعض المخلوقات الخشبية أو الحجرية وسائط له ، يرجو بهـــا الخير ويدفع الشر ، واذا سئل عن هذه المخلوقات التى يقدسها وينحنى لها قال : « ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » ..

وقد رفض الاسلام هذا السلوك الغبى ، وأمر أن يقصد الناس الى ربهم مباشرة ، وأن يتركوا هذه الآلهة المختلقة ، وأكد الاسلام أن كل ما عدا الله ــ تبارك اسمه ــ عبد له فقـــير اليه ، فليس فى السموات ولا فى الارض ، ولا فى الاولين أو الآخرين ، من يشذ عن هذا الوصف

وظاهر من الاستقراء التاريخى أن الشرك بالله تخيل واعوجاج يسيطران على بعض الجهال ، وأنه ليس هناك فى عالم الواقع شريك فى خلق أو رزق .

واذا كان هناك من عبد حجرا فان المستقر الحقيقى لهـــذا الحجر أن يكون درجة سلم أو عتبة دار ..

واذا كان هناك من عبد بشرا فان المستقر الحقيقى لهذا البشر أن يلقى جزاء عمله ، اما بين أفنان الجنة ، أو بين طبقات النار ٠ ٠ ٠

أما رب العالمين — تبارك اسمه — فهو واحد لا شريك له ، له المجد كله ، وله الحمد كله ٠ ٠ أتظن أن مالك هذا الكون فقير ؟ أتظن أن مخترعه من عدم عاجز ؟ أتظن أن واضع نظمه وراسم سننته جاهل ؟ ٠

ان الله — بمنطق البداهة — غني وغيره فقير اليه ، قادر وما عداه عاجز ، عالم ومن خلقهم لا يدرون الا ما يقفهم عليه ، الكمال كله فى ذاته ، والنقص كله فى عالم مقهور لقدرته خاضع لسلطانه مرهون بمشيئته ، وهذا معنى « الصمد » ٠

اسمع هذه الكلمات لرجل من تلامذة محمد صلى الله عليه وسلم الذين تعلموا منه وحدانية الله ، والتسبيح بحمده واللهج بمدحه ، أخرج الطبرانى عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بأعرابى وهو يدعو فى صلاته يقول : يا من لا تراه العيون ، ولا تخالطه الظنون ، ولا يصفه الواصفون ، ولا تغيره الحوادث ، ولا يخشى الدوائر ٠ يعلم مثاقيل الجبال ومكاييل البحار ، وعدد قطر الأمطار ، وعدد ورق الأشجار ، وعدد ما أظلم عليه الليل وأشرق عليه النهار ، ولا توارى منه سماء سماء ولا أرض أرضا ، ولا بحر ما فى قعره ، ولا جبل ما فى وعره ٠ اجعل خير عمرى آخره وخير عملى خواتيمه ، وخير أيامى يوم ألقاك فيه ٠ ٠ » (١) ٠

أسمعت هذه الكلمات الحية أنها تصف الصمد الذى ليس كمثله شىء ولا يستغنى عنه أى شىء ٠ ٠

---

(١) وتمام الحديث فوكل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأعرابى رجلا فقال اذا صلى فأتنى به فلما صلى أتاه وقد كان اهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب من بعض المعادن ، فلما أتاه الأعرابى وهب له الذهب وقال ممن أنت يا اعرابى قال من بنى عامر بن صعصعة يا رسول الله قال هل تدرى لم وهبت لك الذهب ؟ قال للرحم بيننا وبينك يا رسول الله قال ان للرحم حقا ولكن وهبت لك الذهب بحسن ثنائك على الله عز وجل . رواه الطبرانى فى الأوسط من حديث أنس — قال فى مجمع الزوائد ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن محمد أبو عبد الرحمن الأذرمى وهو ثقة — كتبه محمد سليمان .

وهنا يبرز القرآن حقيقة تاه البعض عنها ، غش البعض جوهرها ، وهذه الحقيقة أن الفرد الصمد يستحيل أن يشبه العالم الذى خلقه ، فى صفاته أو حدوده أو خصائصه •

فالله يستحيل أن يكون والدا أو ولدا ، يستحيل أن يكون ابنا أو بنتا •

ان الازدواج طريق التكامل أو البقاء بين أجناس الخلائق •

وكأنما أراد الله أن يقيم بناء الكون على هذا النحو ليبدو فقر بعضه الى بعضه ثم فقره كله الى الخالق الأعلى ، فقال « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » • • • ان الفرد الصمد خلق العالم بهذا الازدواج المطرد ، وبقى هو الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد « سبحان الذى خلق الأزواج كلها ، مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » •

وقد نبه الاسلام الى أن هذا المعنى محور الايمان فيه ، فليس لله ند ولا ضد ، وليس له صاحبة ولا ولد « أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كلشىء وهو بكل شىء عليم » ؟ ؟

بيد أن الجاهلين تطاولوا على الله ، وأساءوا فهم ذاته ، وجعلوا شيئا ما ينبثق منها ويوصف بأنه ولد لله ، وقد سمى القرآن الكريم هذا المسلك كفرا « وجعلوا له من عباده جزءا ان الانسان لكفور مبين » •

الخصيصة الأولى فى الاسلام أن ما عدا الله عبد له ، وأنه ــ سبحانه ــ أحد صمد ، لا والد له ولا ولد ، وأنه يستحيل أن يساويه كائن آخر فى الأرض ولا فى السماء • •

واخلاص التوحيد ينهض على هذه الدعامة ، ولا شائبة من حق فى أى لون من ألوان الشرك •

محمد الغزالى